تعقيبات

للاستاذ أنور المعداوى

« الإطراء النفسى » وتطبيقه على الشعراء :

منذ أن تفضلت بالتعقيب على رسالتى الأولى وأنا أرجو الكتابة إليك والثناء عليك ، ولكنى أعتذر من هذه الفترة الطويلة التى انقضت دون أن أكاتبك فيها بسبب الشاغل والظروف : أما وقد جمع بيننا الإعجاب وربطت بيننا المودة ، فلا داعى لأن أقول لك إن هذه المودة وذلك الإعجاب يسوغان هذا الاعتذار ويرجوان لديك القبول .

وأشكرك أولا بصدد ما كتبته عنى وآمل أن أكون عند حسن ظنك .. أما ردك على مسألة أدب النفس أو أدب التراجم الذاتية فقد أعجبت كل الاعجاب بما عرضته من حقائق ، وبالطبع أرجأت الكتابة عن النقد والنقاد لأن من رأيك كما هو من رأيى « ألا مناص من المصاحبة والمعاشرة بين الناقد والمنقود ، لتتكشف الشخصية الإنسانية للدارسين من خلال ثوبها الطبيعى الذى يشف عما تحته بلا تعمل ولا تكلف ولا رياء ؛ ذلك لأن البيئة التى نعيش فيها والمجتمع الذى نضطرب فيه ، لا يهيئان لنا أن نتحدث عن أنفسنا حديث الصراحة السافرة التى تعنى بابراز المحاسن والمآثر عنايتها بابراز المساوئ والعيوب » !

أريد بعد هذا أن أسجل هنا أن المذهب الجديد الذى أخرجته إلى عالمنا الأدبى فى النقد الحديث ، مذهب من الوجاهة والقوة بمكان نستحق عليه الثناء والتقدير والتخليد ، ويسرنى كثيرا أن ألفاك قويا فى الدفاع عن مذهبك كل القوة مبدعا فى الذود عنه كل الابداع . ولئن دل هذا على شىء فإنما يدل على قوة الذهن التى أنتجت مثل هذا المذهب ، وبراعة القلم الذى فسر أصوله وقواعده وحلل مضمونه ومراميه . وإنى لأستنتج من ذلك أن حركتنا الأدبية الحديثة بخير ما دامت قد أوجدت لنا مثل هذه الاتجاهات الفكرية والمذاهب النقدية ، ونحن أحوج ما نكون إلى « المذهبية » السليمة فى النقد الأدبى ، لأنها تعصم هذا النقد من « اللخبطة » و « الرخاوة » و « المحسوبية » و « التفكك » ولأنها خير ضمان لإيجاد مدارس أدبية فى النقد واتجاهاته ومبادئه .

إن الميزان فى النقد الأدبى يخلقه الناقد لنفسه ولا يحيد عنه ، ومن النقاد من يتخذ هذا الميزان « كيلا » ومنهم من يتخذه « ثقلا » والكيل والثقل أصناف وأنواع ولكنهما لا يخرجان عن مبدأ « الميزان » .. ولا أريد أن أتوسع فى ميزان « الأداء النفسى » الذى اتخذته معيارا لنقدك وأساسا لحكمك ، ولكن لست أدرى أهو القلم الذى يدفعنى إلى هذا القول أم هو الاعجاب الذى دعانى إلى التسطير !

ولقد طبقت مذهبك فتبين لنا نجاحه ومقدرته على الصمود والخلود ، بيد أنك وفيت هذا التطبيق على شاعر كبير وفنان معروف هو الأستاذ على محمود طه رحمه الله .. ولكن بقى فريق من الشعراء يستحق أن يظفر منك بمثل هذا التطبيق ، حتى تظهر القيم الفنية على حقيقتها ويحتل كل شاعر من هؤلاء مكانه المنتظر ! وإذا كنت قد قلت فى كلمة سابقة إن المناسبة وحدها هى التى تدعوك إلى إبداء رأيك فى بعض الناس ، فاننا نؤمن بأن هذه المناسبات كثيرة وبأنها آتية ما فى ذلك شك ، إلا أن ذلك لا يشغلنا عن الهدف الرئيسى وهو مطالبتك بالالتفات إلى هذا الفريق من الشعراء .. وعسى أن يكون هناك برنامج لتلك التوفية فى التطبيق ، كما أحدثت فى شعر هذا الشاعر الكبير وفن ذلك الأديب الفنان .

هذا ما عن لى أن أثبته هنا من هذه الرسالة .. مع خالص التحية لك وخالص التهنئة للاداء النفسى ، وإلى اللقاء .

أحمد طه السنوسى

الأستاذ الفاضل أحمد طه السنوسى هو صاحب هذه « الافتتاحيات » القيمة التى يكتبها كل أسبوع فى الشئون السياسية والاقتصادية بمجلة الثقافة . ومن العجيب حقا أن يشغل الأستاذ السنوسى بأمثال هذه البحوث ، ثم لا يشغل فى الوقت نفسه عن تلك البحوث الأخرى التى تنبت فى حقول الأدب والنقد هنا وهناك . وأعجب من هذا أنه صديق من هؤلاء الأصدقاء الروحيين الذين لا ألتقى بهم إلا بين السطور والكلمات .. على أى شىء تدل هذه الظاهرة ؟ إنها تدل على أن الحياة الفكرية فى مصر لا تخلو من النماذج النادرة فى الوفاء للخلق والعقل .

ماذا أقول لهذا الصديق الذى أخجل تواضعى بثنائه دون

معرفة بيننا ولا سابق لقاء ؟ بودي أن أقول له إنني لست عاتبا عليه هذا الذي يعتذر منه .. حسبنا يا أخي هذا اللقاء الفكري الذي يؤلف بين العقول والقلوب ، ويقيم على دعائم الإخلاص المثل العليا صداقة الأقلام !

أما ما جاء برسالة الأستاذ السنوسي من أنه قد أرجأ الكتابة عن النقد والنقاد بسبب هذا الرأي الذي أبديته من قبل وأقتنع هو به ، فلعل القراء يذكرون رسالته الأولى إلى حول أدب النفس أو أدب التراجم الذاتية ، يوم أن أعرب عن رغبته في أن يقدم عن كاتب هذه السطور حديثه الثالث من محطة هافرسم للاذاعة العربية ، في سلسلة أحاديثه التي بدأها بكلمة نقدية عن الأستاذ توفيق الحكيم أعقبها بكلمة أخرى عن الدكتور طه حسين .. لقد قلت للاستاذ الفاضل يومئذ وهو يطالب إلى أن أتحدث عن نفسي حديث التأمل الباطني والصراحة المحببة ، لأعينه على أن يطيل الوقوف ويخرج ببعض الزوايا ويحدد بعض الخطوط ؟ قلت له يومئذ في مجال الرد على رغبته الكريمة : « ودراسة الحياة النفسية لأديب من الأدباء تقتضي من الدراسين أن يتصلوا اتصالا مباشرا بهذه الحياة بغية المراقبة والملاحظة والتسجيل .. وإذن فلا مناص من المصاحبة والمباشرة بين الناقد والمنقود لتتكشف الشخصية الإنسانية للدارسين من خلال ثوبها الطبيعي الذي يشف عما تحته بلا تعمل ولا تكلف ولا رياء . ذلك لأن البيئة التي نعيش فيها والمجتمع الذي نضطرب فيه ، لا يهيئان لنا أن نتحدث عن أنفسنا حديث الصراحة السافرة التي تعنى بإبراز المحاسن والمآثر عنايتها بإبراز المساوىء والعيوب.. وليس من شك في أن الأستاذ السنوسي يلتمس لنا بعض العذر إذا قلنا له إن الحديث عن النفس شيء عسير ، ولا نقول شيء بغيض كما يحلو لبعض المتحرين بالتواضع أن يصفوه ! عسير لأن المجتمع الذي نتنفس في رحابه سيتهمنا إذا نحن أنصفنا أنفسنا فذكرنا منها الجانب المضيء ، وسيتهمنا مرة أخرى إذا ما عرضناها في صورتها الحقيقية وهي في كنف الظلام . .

نحن إذن معشر الأدباء متهمون في كلا الحالين ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف إذا ما كتب عنا الآخرون لأنهم في نظر المجتمع قضاة محايدون .. هذا إذا قدر لهم أن يطلعوا على ما خفي وما ظهر في حياة المنقودين من شتى الميول والنزعات ! لو كنا في بيئة غير البيئة ومجتمع غير المجتمع لتحدثنا عن أنفسنا حديث الذين لا يخشون لومة لائم ولا اتهام متهم ، ولا جناية جان على حقيقة الطبائع النفسية كما فطرها الله وكما قدر لها أن تكون .. ولكننا بهذه الأوضاع الإجتماعية في الشرق لا نستطيع . وإذا أتيح لنا أن نتحدث إلى الغير عن حياتنا الذاتية بجوانبها المشرقة والمظلمة ، فهي الإباحة التي تدفعنا إلى ذكر بعض الحق والتستر على البعض الآخر ، وحياة كهذه يحال بيننا وبين التحدث عنها بكل الحق هي في رأينا حياة لا يطمئن إليها الدارسون ! إننا نبغي من وراء الدراسة النفسية لحياة أديب من الأدباء أن نضع أيدينا على مفتاح شخصيته الإنسانية ، ورب حادث تافه يتحرج الكاتب من ذكره فيدفع إلى حذفه من تاريخ حياته ؛ رب حادث كهذا يقدم إلينا المفتاح الحقيقي لشخصيته حين يكتب في بضعة أسطر فلا تغني عنه مئات الحوادث في ألوف من الصفحات »

هذا هو بعض ما قلته للاستاذ السنوسي في مجال الرد على رغبته . والحق أننا إذا نظرنا إلى حياة بعض الأدباء والمعاصرين ، ثم خطر لنا أن نتخير بعض كتاب التراجم الذين يصلحون للتحدث عن هذه الحياة على هدى هذا المنهج الذي أوضحناه ، لوجب أن يقع اختيارنا على العقاد ليكتب عن المازني ، وعلى المازني ليكتب عن طه ، وعلى الخولي ليكتب عن أحمد أمين ، لأن هؤلاء جميعا قد أتيح لهم من الاطلاع على حياة أولئك ما لم يتح لغيرهم أن يطلع عليه .. ولعل تلك الدراسة النفسية التي كتبتها عن الشاعر علي محمود طه وما سيضاف إليها من فصول لم تنشر ، تقدم الدليل على أن المصاحبة والمباشرة بين الناقد والمنقود أمر لا غنى عنه لكاتب التراجم ودارس الأدب وناقد الفنون !

بعد هذا أعود إلى المحور الرئيسي الذي تدور حوله رسالة الأستاذ السنوسي لأقول له : لقد طالبتني بتطبيق مذهب «الأداء النفسي» على شعراء آخرين غير علي محمود طه لتظهر قيمتهم الفنية على ضوء هذا التطبيق . فمن هم هؤلاء الشعراء ؟ إنك يا أخي لم تحدد العصور ولا المواطن ولا الأسماء ، حتى أستطيع أن أتبين الهدف الذي تقصد إليه .. ترى هل تطالبني بتطبيق هذا المذهب على شعراء عصر بأكمله في كل موطن من مواطن الشعر العربي ، أم أن هناك بعض الأسماء المختارة التي ترى أن شعر أصحابها تشع فيه ومضات من هذا الأداء ؟

مهما يكن من شيء فقد أخرجت مذهب « الأداء النفسي » لأقدم من طريقه وجهة نظر ذاتية في فهم الشعر وتذوقه ودراسته

على أسس جديدة غير تلك التي ألفها الناس ، وإذا كنت قد طبقته على شاعر واحد فلأنني أومن بأن هذا الشاعر هو من خير النماذج الفنية التي تمثل هذا المذهب في أفق الشعر العربي الحديث وما عنيت بقصر التطبيق عليه ، وإنما عنيت بأن أقدم دراسة نقدية للشعر كما أفهمه وأتذوقه على أن يكون هذا النقد مقترنا بالمثال !

عتاب في غير موضعه :

طالع القراء في العدد الماضي من الرسالة كلمة للقصاص العراقي الفاضل كارنيك جورج ، في الرد على ما كتبه أديب لبناني صديق دفاعا عن مجلة الأديب . أما هذه الكلمة فقد استهلها الأستاذ كارنيك بشيء من العتاب لانني لم أذكر إسم الكاتب اللبناني في ختام دفاعه ، متخيلا أنني فعلت ذلك بدافع الصداقة .. أود أن أقول له إن هذا العتاب في غير موضعه ، لأن الصداقة لا دخل لها فيما حدث من قريب ولا من بعيد ! لقد طلب إلى الأديب اللبناني الصديق ألا أذكر إسمه وقد فعلت ، لأنني لا أحب أن أعترض طريق رغبة من الرغبات سواء أكانت لصديق أم غير صديق . ولو أنني كنت متأثرا بدوافع الصداقة لما سمحت للقصاص العراقي بأن يقول عن صديقي إن دفاعه كان يحوي « أوضع » الاتهامات !!

إن منهجي الذي أسير عليه هو أن أتيح لكل طرف من أطراف هذه الخصومة أن يقول ما يشاء ، ولهذا فسحت المجال لكثير من العبارات القاسية التي أغرق فيها الدفاع خاصة وأسرف فيها الاتهام بوجه أخص . ولا يهمني من وراء هذه الحرية المتاحة للجانبين إلا أن يقارن الناس بين حجة وحجة ويوازنوا بين دليل ودليل ، وهذا هو الطريق الوحيد الذي يسلكه السالكون ليصلوا إلى الحقيقة في وضح النهار ! وإذا كان الأستاذ كارنيك يأخذ على أنني ملت إلى تصديق الأديب اللبناني فيما رمى به إنتاجه القصصي من الضعف والركاكة ، فانني أقول له إنه لم يقرأ كلمتي بعناية ، لأن التصديق في تلك الكلمة لم يكن منصبا إلا على جانب واحد ، هو جانب الإشارة إلى ما يلقاه صاحب « الأديب » من ضيق مادي في سبيل مجلته . وماعدا ذلك من أمور فقد تركته إلى القراء ، لأنه ليس من عادتي أن أوافق إنسانا على رأيه الخاص في كتاب من الكتب دون أن أقرأ هذا الكتاب ، ولو كان صاحب الرأي يحتل مكانه « سانت بيف » في النقد الأدبي !

ترى هل يوافقني الأديب العراقي الفاضل بعد هذا على أن عتابه كان في غير موضعه ؟ لقد احتكم إلي في هذه الخصومة وكذلك احتكمت إلى « الأديب » على لسان أحد الأصدقاء .. ولقد قلت رأيي هنا وهناك وبقي حكم القراء .

دفاع عن السيريالزم :

بين يدي رسالة ثائرة من الأديب المصري مختار العطار « دبلوم الفنون الجميلة العليا ومحرر مجلة القصة » يهاجمني فيها هجوما « عنيفا » لأنني قلت عن المذهب السريالي في الرسم ما يجب أن يقال ، ولأنه من أنصار هذا المذهب ومن دعاته في مصر .. لا بأس من أن يدافع الأديب العطار عن مذهب يؤمن به ، ولكنه يجترىء كثيرا على الحق حين يقول لي : « مالك أنت والسيريالزم ؟ إنه مذهب خاص بالرسم والرسامين لا يفهمه غيرهم وليس لكل إنسان أن يهاجمه إذا كان قد استعصى عليه فهمه ، حتى ولو كان أديبا كبيرا مثالك »

أؤكد للأديب الثائر أنني أستطيع أن أتحدث عن المذاهب الفنية في الرسم خيرا مما أتحدث عن المذاهب النقدية في الأدب ، وأنني أستطيع أن أحاضر عن السيريالزم ويكون هو في صفوف المستمعين .. هذه حقيقة لا يعلمها لأنه لا يعرف شيئا عن كاتب هذه السطور في ثقافته الفنية !

ويجترىء مرة أخرى على الحق حين يقول لي : « وأحب أن أصحح لك معلوماتك عن الرسام السريالي « بيكاسو » . . لقد زعمت في مقالك عن الفن والقيود أنه رسام فرنسي والواقع أنه أسباني ، وتلك حقيقة لا يجهلها غير المبتدئين في الفن » .. أنا مع الأديب العطار في أن المبتدئين في الفن يعلمون هذه الحقيقة ولو لم يكن هو واحدا من هؤلاء المبتدئين لما وقفت ثقافته « الواسعة » عند هذه الحقيقة الصغيرة . إن « بيكاسو » يا بني أسباني المولد ولكنه فرنسي النشأة ، أعني أنه تجنس بالجنسية الفرنسية منذ أمد بعيد ، وأن مذهبه السريالي في الرسم قد ولد في مهد فرنسي ودرج فوق أرض فرنسية وانتسب إلى فرنسا حين ينتسب كل فن من الفنون إلى وطن من الأوطان .. أعني مرة أخرى أن أسبانيا اليوم لا تعتبره واحدا من